شيطان بنتئور

(المحادثة الثانية عشرة)

قال الهدهد خرجت في أصيل الغد الى الفسطاط فى الحلة التى قضاها الشيخ لى واختارها ، وأنا لا أعرف العجوز ولا دارها ، ولا أدرى كيف أملك مزارها ، أو أجد من يحدثنى أخبارها ؛ وانكر على الاستاذ هذه التعمية ، وأعذله على اختياره النعت على التسمية ، فجعلت أمشى قلقا فى هذا البلد ، غريباً فى ثيابى ، تزدحم شفاه العامة على يدى بالتقبيل ، ويتنحى الخواص حيث أسير ، وأنا أغبط فى نفسى رؤساء الديانات بهذه المكانة فى النفوس ، واحسدهم على هذه المنزلة في القلوب ، وأنظر سلطان الرغبة كيف يعلو على سلطان الرهبة ، وأري الملك الكبير ، لمالك السرير ، وقد راقنى وادهشنى انى لم أر عربيا ظهر لقومه أو للمسلمين من أهل البلد فى مظهر رئيس روحى أو مسيطر دينى ، وفى الفسطاط كثير من صحابة النبى الذين يتعلم الدين فى بدايته منهم ، وتؤخذ أصوله على حقيقتها عنهم ، بل وجدتهم كسائر العرب فى مصر جنود الخلافة ، وأنصار الامانة ، واعوان الحكومة الاسلامية ، يعزون الاسلام آونة بالجهاد ، وآونة بحسن السيرة فى العباد ، لا يلتمسون الكرامة ، فى تكبير العامة ، ولا يوسم أحدهم بولاية ، وهم مصابيح الهداية ، وعلى عهدهم ظهرت الآية . دائبون في خدمة الدين لا يألونها صبرا يغتربون من أجله ، ويقاطعون الدنيا فى وصله ، ويعلقون بيض الايادى وكرائم الصنائع فى أعناق الامم ممن يأتى بعدهم ، قدم فى الشام ، وأخرى فى العراق ، ولواء فى سماء النيل خفاق ؛ ويدها بالامر فى الروم انطلاق ، وحكومة تنتظم سائر الافاق ، وهكذا العلماء لا غنى عنهم علمهم ، ولا تثبت لهم هذه الصنعة العالية فى نظر الجماعة حتى يجمعوا بين المدارك والهمم ، وتنقاد بازمتهم الحياة العملية فى لامم . يرشدون الناس بالعلم مرة وبالعمل مرارا ، ويعرفونهم كيف يطلب الدنيا بالعقل ، وتركب الحياة الى المحيا السهل ، وتتزود النفوس من المجد والفضل

للعلم أهل ليس يألونه أخذاً ورداً فى شؤون العباد
لهم مراد لا ينالونه حتى ينالوا غايتى الاجتهاد
العلم فى أنواعه كلها والعمل الموصول فيما أفاد
في خلفاء الله من قبل ما ينبيك ان العلم للخلق هاد
كانت تفيض الارض من علمهم فى الحكم أو فى الوعظ أو فى الجهاد

فما باله أصبح يحمله من لا يبذله ، وصار يدعيه من ليس يعيه ، و ما المسلمين مختلفين فيه ، فريق يرى النافع الرافع منه ما كان مقصورا على الشريعة منحصرا فى فقهها مردودا الى المذاهب الاربعة فيها ، و التقى النقي من هذه الفئة من عادى لغات الغربيين وهى التى ينهى بها فينا معاشر الشرقيين و يؤمر ، واحتقر علومهم وفنونهم وهى التى نفاضل بها فنفضل و نقاوم بها فنخذل ، وتقتلنا كل يوم بلاقتال : و فريق يهجرون علوم الدين و آداب اللغة العربية الى لغات لم تجر بها الفاظ آبائهم ، وآداب لم تقم عليها حياة أجدادهم ، ولم تؤلف بعد فى بلادهم وان أمة لا تجمع على لغة ولا ترجع الى جامعة من الآداب القومية ، ولا رابطة من الاخلاق الملية ، ليست على شيء من الحياة وان جمعت فيها معانى الفضائل .

أرى جوامع الشعوب أربعا أمرهم بدونها ان تجمعا
الدين فى آدابه ، متبعا ، والجنس لا حتما ولا مضيعا
والعلم يهديك الى ما نفعا ولغة يفهمها من سمعا

تكون فى الغالب والعلم معا

قال الهدهد . و مازلت فى تنقل واستقراء ، وتجول واستجلاء ومشى على قلق وعناء ، حتى أعييت بضالتى طلبا وسعيا ، فصحت لا نشدت تلك العجوز ولو أنها الدنيا ، وهناك مرت يد على كتفي فالتفت فرأيت النسر يعتذر عذر البريء ، وسمعته يقول نعم هى الدنيا و أنت فى الطلب ، وستراها وتسمع حديثها عن كثب ، فقضيت من مقالته العجب . وقلت اذاً أغفر لك ابطاءك ، ولا استنكر استهزاءك ، ومر لى أن أجتمع بفاتنة الانام ، اتى ما رؤيت الا فى الاوهام ، ولا تمثلت الا فى الاحلام . قال وهذه دارها واشار الى خربة على الطريق

من بقايا الرومان . قلت وما يلجئها الى هذه الانعزال والاستتار . ولو شاءت لسكنت الاسماع والابصار . قال ليس لها الا ماتسترد ، وشيمتها أن لاتسترد النعم ، حتى تحولها الى نقم . تعطى القصور عالية ، وتأخذها أطلالا بالية . قلت ونحن نتقدم اليها الآن يامولاى . قال ادخل عليها هذا الاثر ، وانا على الاثر . وتدلل عليها فى الخطاب ، ولاتخشها انها فى سجن ابن الخطاب .

قال الهدهد فتقدمت وحدى حتى جئت باباً صغيرا ، فلم أطرقه بل عالجته ، فانفتح من نفسه . فاذا أنا لدى عجوز أكل الدهر لحمها ، وادق عظمها وجمع كالقوس جسمها ، وشيب كل شعرة فى بدنها ، حتى شعرات فى اذنها . وهى تنوء بسلاسل الحديد وترزح فى أسر شديد . فضحكت من منظرها وبادأتها بالخطاب فقلت أيتها الامة المضطهدة ، والعجوز المقيدة ، كيف حالك . وعمر فدا تتقم منك للزمر ، ونهى عليك بعد النهى . وأمر . لئن حبسك فطالما حبست رزق لرجل الفاضل . وقيدت نفس الحر العاقل ، وملكت انقض رزق الكامل . فاستضحكت العجوز ثم قالت ، من هذا الذى شمت بحدة الناس ، وأم الكل فى الاجناس ، الا اثنين ابن الخطاب صاحب هذا الامر ، وابن عبدالعزيز عذر بنى أمية ، لو قام لهم عذر . قلت ولاناس الا من ذكرت ، ولا أناس الا من سميت . قالت ولايغرنك أيها الفتى أن الذل شعارى ، وانى عاجزة عن فك أسارى ، فو الذى سلطنى على عباده ليبلوهم أيهم أصدق عزما ، وأجمل صبرا ، وأقصد اليه سرا وجهرا ، سامتك عمرا لا الظواهر . ولى التسلط على السرائر ، والسيطرة على الضمائر .

وليس هذا الذى ترى فى ملك ابن الخطاب من زهدى ، وتجنى على ، واساءة الى ، الا غاية وتنقضى . وحال من أكره لا من رضى . عليها فى مساراة الخليفة ، يوجسون منه خيفة . ورجال يلبسون لكل دولة لبوسها ، ياخذون نعيمها ، ويذرون بؤسها ، زهاد فى دولة الزاهد . شياطين فى زمان الناسك .

وبينما نحن فى الكلام دخل النسر فوقف بين المهابة للعجوز ، والاكبار ثم خاطبها فقال :

أيتها الحاكمة فى البشر . من غبر منهم ومن حضر ، والآتى منهم المنتظر ،

مالقيت من عمر ، فى ظلمات هذا الاثر . قالت أضيق الامر ، و أعظم الاسر ، فانها حال تحول ، و نازلة عما قريب تزول . ثم افك فى هذه الامة فتكا ، و أصير هذا الامر تقتتل عليه القبائل . و تتلاعن من أجله البطون ، و تنفانى فى طلبه الشعوب ، و لا ازال كذلك حتى أشقي مرة أخرى فى زمن ابن عبد العزيز ، ثم يخلو لى الجو الى الابد ، و احكم فى المسلمين على الامد . قال بحق عمر عليك الا وصفت لى الاربعة الخلفاء . قالت

أما أبو بكر فاخذنى كما تؤخذ الاماء ، و خرج منى خروج الانبياء ، ضرب على يدى أن أفسد هذا الامر حين الفرصة سانحة ، و الصفقة رابحة ، و الامة جانحة ، الى الفتنة جانحة .

و أما هذا الذي اعذب فى أسره ، و أبلو المر من معاملته ، فاشدهم اعراضا عني ، و أكثرهم فرارا منى ، لم يرضنى أمة تشرى ، و لا قبل بى طريقاً الى الاخرى ، و لا يزال حتى يخرج منى خروج الانبياء .

و أما ابن عفان فاتقرب اليه بقرابته ، و أمهد للفتنة تمهيداً فى خلافته ، و لا أزال به أتنازعه أناو دينه ، حتى أزول عنه الى على أزهد الناس فى . و اكثرهم اساءة الى ، فيفضحنى فى كلمه ، و يقبحنى فى حكمه ، و لا يرضى بى لنفسه . قسما ، و لا للغير غنما ، ينافس فى معاوية و نفسه عنى راغبة سالية ، و لا يزال يجعل همه فى جمع أمر الامة و حفظ امرة المسلمين فى بيت النبوة ، و أنا أروغ بالنفوس منه ، و أحيد بالقلوب عنه ، حتى يخرج منى و ليس فى يده منى هباء ، كما خرج من قبل الانبياء . قال النمر فكيف انت بمعاوية

قالت فطن داهية ، مختلف فى السر و العلانية . لا يزال يهجر فى الى الدين ، و يهجر الدين الى ، و هو فى خاصة نفسه احرص الناس على ، يتسع من نعيمى لنفسه و لذريته من بعده ، و يتخذ الآخرة طريقا الى ، و كنت طريق السلف اليها ، حتى اجتمع له و لآله و اعوانه ، ثم أزول عنه و قد استرقنى بنى أمية يصيبون بى خيرا كثيرا ، و يتوارثوننى ملكا فى الارض كبيرا .

قال و أنت ظل الملك حيث كان كنت ، و اين سكن سكنت . قالت انا الملك و الملك أنا ، و ما هض نبي فى الارض من آذانى بشامل عدله و سامنى بحسن سيرته ،

الا زلت عنه على عهـده ، أوقاطعت ذريته من بعده . وهذا هوالسر فى كون الملوك الصالحين العادلين فى التاريخ لم تستقم لا كثرهم الحال فى أواخر حكمهم، ولم يقم من عقبهم من أحسن السلوك ، أوسار سيرة تليق بالملوك .

(قال الهدهد) ثم التفت النسر الى و قال : دونك أيها الهدهد هذه الصحيفة الناطقة ، وهذا التاريخ المتكلم . فسل ماشئت ؛ و استفسر عماشئت من فائدة تستجليها ، أو حكمة تأخذها . فاستقبلت العجوز وأنا أعجب من حفاوة الاستاذ بها ، واستغرب من هذه المبالغة فى خطابها . ثم قلت صفحا أيتها الدنيا عن هفوتى ، وانسى لى جفوتى، وخبرينى أى الناس أحب اليك، وأيهم أبغض عليك.

قالت أحب الناس الى أبغضهم على الله ، وأبغض الناس الى أحبهم الى الله قلت ومن أبغضهم الى الله ، ومن أحبهم اليه . قالت أبغضهم الى الله العالم المفتون وذو الصنع الممنون ، ومؤتمن يخون وأحبهم اليه العامل عن علم ، المتواضع فى رفعته ، العافى على مقدرة الذاكر الموت ، المستعده له . فهذا الذى يرجى لعظيم الاعمال فى الدنيا ولصالحها فى الآخرة .

قلت عظينى أيتها العجوز . قالت خلقت أضل ولا أدل ، وأفسد ولا أرشد وما مثلى الا كالنار تهدى الناظر من بعد اليها ، وتحرق المتهافت عليها . قلت أي الأمم بك أعلم ، وأى الحكماء فى وصفك أحكم . ؟

قالت الامة التى جاء فى كتابها المنزل بلسانها فى جملة وصفى (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) والتى يقول فى شاعرها : —

وما الناس الاهالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

قلت عرفينى بعض صفاتك ، وصفى لى شيئا من آفاتك . قالت : أنا المانحة المانعة ، الواصلة القاطعة ، أقبل لاشاملة ، ولا كاملة ، وادبر لامنذرة ولامعذرة صفوى عند كدرى ، وكدرى عند صفوى ، اؤنس الملك فيشقى ، وامنى السوقة فترضى . وأنى الأمن المطمئن من حيث لا يتقى ، وأصيب اللاهى الناعم فيما يؤنسه فى خاصة نفسه ، لامايظهر للناس من أنسه . السنة الناس فى سبى ، وقلوبهم مملوءة من حبى . يخالط بعضهم فى بعضا ، وما أضمر أحدهم لى كراهة ولا بغضا . من زلت عنه استفاد ، ومن اتسع منى استزاد . ولاحى الا له فى مراد

العاقل من أخذني أخذا ، ونبذني نبذا ، ولم يقف في طلبي بين التقنع والجهاد . فمن أخذني فبالمراد الغزير ، والجهاد الكثير . ومن نبذني فبالاعتقاد المستقر والسلوان المستمر . لايرغب مع الاخرة في ثمين ، ولا يؤثر عليها المال الرنين ومتى كان كذلك فله لا للمتنبي أن يقول : —

كذا أنا يادنيا اذا شئت فاذهبي ويانفس زيدي في كراهتها قدماً

قال الهدهد وكنت أصوب النظر في العجوز واصعده ، فأراها تلبس حالا عن حال ، وتصير من غايات القبح الى نهاية الجمال . ثم نهضت من السلاسل والاغلال ، وتمثلت لي وللنسر غادة كالمثال ، فلما رآها الاستاذ دق يداً بيد وقال ، قضى الامر وقتل عمر واستقبل العرب الدنيا واقتتلوا على الملك ، وجاءتهم الفتنة من كل مكان . قالت كذلك هم منذ الآن . ولا ازال حتي أجمعهم على سب بيت منه خرجوا ، وفي ظله دبوا ود رجوا ، وبه ظهر غيرهم ، وعليه بنى ملكهم ، ثم لاأزال حتى يحكم فيهم من يزري بالقرآن ، ثم لا أزال حتى يغلبهم الهمل من العجم على أمرهم ، ويسلبوهم مابأيديهم . ثم لا أزال حتى يتفرقوا في البلاد ثم لاأزال حتى يمسوا كأن لم يكونوا شيئا مذكورا ويبقى قرآنهم ولسانهم خالدين على الامد ، منشورين الى الابد .

قال الهدهد ثم انطلقت الدنيا من أسرها وتركتنا نقضي العجب من امرها ، فالتفت النسر الى وقال : لاخير في هذا الامر بعد عمر ، ولا مقام لنا في ملك هذا الذي يموت عن عبيد وأماء ، وضياع وثراء ، وأثاث وكساء ، بعد ماظلم أبا الزهراء ، وآثر على الخلافة الخلفاء ، وأرق ماشاء من دماء . ثم التي المعذرة ، والدنيا مدبرة ، وطلب المغفرة ، حال الغرغرة قلت ومن تعني يامولاي قال ابن العاص . قلت ذاك الذي أبلى بالاس في الجهاد ، وجلس للحكم بين الناس بمجلس الزهاد ؟ قال كانت نفسه كالدنيا مغلولة الى حين ، ثم فكت بموت أمير المؤمنين . وتثاءب النسر عند ذلك فخشيت أن تكون هذه النومة الكبرى وأن لا أراه مرة أخرى فسألته عن الملتقى فقال بمصر بين الجزيرة والجسر فسررت بالموعد وبشرت نفسي بأصال مستعادة أقضيها مع النسر في استقراء واستفادة .